وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد بوضياف بالمسيلة قسم التاريخ

دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: أعلام الفكر الإصلاحي والسياسي في الوطن العربي

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة الثالثة: عوامل النهضة في الوطن العربي

تمهيد: تضافرت جملة من العوامل على امتدادات زمنية وعلى تباين في مستويات التأثير بين الجغرافيات العربية مشرقا ومغربا في الإسهام في بعث المشروع النهضوي بما أدى إلى تنامي الوعي بحالة التأخر ونمو الاستعدادات لمحاولة الخروج منها ويمكننا إجمالها في الجوانب الآتية.

عوامل النهضة الفكرية

1/ الحملة النابليونية على مصر 1798-1801م: فتحت الحملة الفرنسية على مصر أبواب العالم العربي على الحضارة الغربية الحديثة بما اشتملت عليه من مبادئ سياسية وأنظمة إدارية وعلوم وآداب وفنون وطباعة وصحافة وغيرها، وقد رافق نابليون في حملته أرماده من العلماء متعددي الاختصاصات بلغ عددهم 175 عالما في ميادين الرياضيات والهندسة والطب وعلم الفلك والآثار والجغرافيا وغيرها،كما جلب معه مطبعتين إحداهما فرنسية والأخرى عربية، وأسس مجمعا علميا على غرار المجمع العلمي الفرنسي من أجل البحث والدراسة في موضوعات الطبيعة والصناعة والتاريخ وكان المجلس مؤلفا من ثمانية وأربعين عضوا موزعين على أربعة أقسام هي الرياضيات والعلوم الطبيعية والآداب والفنون والاقتصاد السياسي، وأنشأ مرصدا ومتحفا ومختبرا وأقام مسرحا للتمثيل واصدر جريدتين باللسان الفرنسي هما La Décade Egyptienneوهي جريدة اقتصادية تصدر كل عشرة أيام، و Le Courrier

d'Egypte وهي ناطقة باسم السلطات الفرنسية وتوزع كل أربعة أيام، كما أصدر جريدة عربية هي " التنبيه " لنشر البيانات على الناس.

لقد كان لمخلفات الحملة المادية والنفسية آثارا قوية على تحريك العقول التي وجدت نفسها بين الإعجاب والدهشة، وقد كتب الباحث عبد الرحمن اليعقوبي ملخصا وقعها :" فقد أثارت مدافع نابليون بونابرت في الشرق العربي ما بات يعرف بصدمة الحداثة، وتشكّل تحت وطأة مضاعفاتها وآثارها سؤال في الفكر النهضوي العربي عن سبب تقدم الغرب وتأخرنا نحن، وقد أدى استيعاب الصدمة ومحاولة هضمها إلى طرح سؤال أساسي آخر مترتب عن هذا السؤال الأول ويتلخص في : ما هو التقدم؟ وما الطريق إليه؟".

يتحدث فهمي جدعان عن بدايات التحول في التعاطي مع العلم والمنتجات التي أفرزتها الحضارة الغربية من جراء الاصطدام الذي تلى الحملة النابليونية، حيث يقول: " ومهما يكن من أمر، فإن من المؤكد أن علينا أن ننتظر حملة نابليون على مصر عام 1798م لكي نلاحظ بداية الاهتمام بالعلوم الحديثة، ولكي نشاهد رجالا كالشيخ حسن العطار 1766-1835م يتصلون بعلماء الحملة، ويطلعون على كتبهم وآلاتهم الفلكية والهندسية، وعلى بعض تجاربهم العلمية، فتعتريهم الدهشة أولا ثم يلي ذلك الإعجاب، ثم هذه الكلمة ذات الدلالة العميقة التي أطلقها حسن العطار نفسه: " إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ".

2/ البعثات العلمية إلى أوربا: وهي عبارة عن سفريات منظمة بهدف تلقي الخبرة العلمية والتقنية على مستوى المراكز والهيئات المتخصصة على مستوى البلدان الأوربية ورافقها اطلاع هؤلاء المبعوثون على نمط الحياة وخصوصيات المجتمع الغربي ومن ثمة تحولوا إلى قنوات لنقل الخبرة.

يعتبر محمد علي باشا الذي تولى حكم مصر لمدة قاربت نصف قرن 1805 – 1848م من أبرز متزعمي هذا الخيار، فقد آثر الاستعانة بالايطاليين في البداية حينما أرسل بعثة عام 1813م وكان يتوجس من الفرنسيين والانجليز، لكنه عدل عن ذلك، وأخذ في تسفير البعثات، وقد كانت البعثة الأولى الشهيرة التي ضمت 44 طالبا، قد عبرت المتوسط باتجاه فرنسا عام 1826م،

وقد تولى إرشادها الديني رفاعة الطهطاوي لدراسة مختلف العلوم النظرية والتطبيقية، وتقول الباحثة منى أحمد أبوزيد عن تلك الإرسالية:" هذه البعثة كانت هي الإطلالة الهامة والحقيقية للعنصر المصري والعربي على الحضارة الأوربية الحديثة في مواطنها وديارها "

لقد كانت تلك البعثات من العوامل الهامة في الانفتاح على حضارة الغرب، وترجمة العديد من المؤلفات العلمية والأدبية والفنية إلى اللغة العربية، وتدريس العلوم الحديثة في المعاهد والمدارس التي أنشأها محمد علي وخلفاؤه على النمط الأوربي.

3/ ظهور الطباعة وتطور أعمال النشر:يكاد الدارسون يجمعون على أن المطبعة التي احضرها نابليون خلال حملته هي أول مطبعة في شكلها المطور دخلت البلاد العربية، وقد أنشأ بعدها محمد علي مطبعة بولاق (المطبعة الأهلية) عام 1821م، بعدما أوفد بعثة لدراسة فن الطباعة إلى ايطاليا، وكان أول عمل طبع بها معجم عربي ايطالي عام 1822م، وقد تلتها في الشهرة المطبعة الأمريكية في بيروت التي تأسست عام 1834م، ثم انتشرت المطابع تدريجيا في مصر والمشرق العربي.

يقول الأديب الدمشقي وجيه بيضون في كتابه (بين الصناديق) " ومن المؤسف أن الشرق العربي لم يتأت له أن يعرف الطباعة إلا متأخرا أي بعد قرنين تقريبا من ظهورها".

ساهمت المطابع في نشر العديد من المؤلفات والكتب العربية القديمة، وإحياء التراث العربي وإيصال المنتوجات الفكرية الحديثة والمؤلفات المترجمة إلى أيدي القراء والمثقفين العرب فكان لها دور كبير في النهضة الفكرية العربية الحديثة.

3/ ظهور الصحافة: لقد كان ميلادها مرتبطا بالاتصال بالغربيين، وبات معروفا أن نابليون حمل معه الصحافة إلى مصر ومن ورائها العالم العربي، وتعد جريدة الوقائع المصرية أول صحيفة عربية أصدرها محمد علي باشا عام 1828م، وعلى المستوى الشخصي يعد رزق الله حسون الحلبي أول عربي

يصدر جريدة أسبوعية هي " مرآة الأحوال "، التي ظهرت في عاصمة السلطنة العثمانية عام 1855م، وتوالت الصحف في شتى الأقطار، حتى بلغ عدد ما برز منها 27 إلى غاية عام 1870م ، وهو عدد ضخم في بداية عهد الصحافة بالنظر إلى انتشار الأمية والجهل بين السكان في تلك الفترة.

لقد أيقظت الصحافة الأذهان، وحملت إلى قرائها لواء الدعوات السياسية والفكرية المختلفة، فساهمت في نشوء رأي عام عربي، وقد حدد أديب إسحاق في العدد الافتتاحي من صحيفة " مصر " التي ظهرت في أواخر ديسمبر 1879م أهداف صحيفته كالآتي: " مسلكي أن اكشف حقائق الأمور، ملتزما جانب التصريح متجافيا عن التعريض والتلميح، وأن أجلو مبادئ الحرية وآراء ذوي النقد...وأن أوضح معايب اللصوص الذين نسميهم اصطلاحا أولي الأمر ومثالب الخونة الذين ندعوهم وهما أمناء الأمة ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلا ولاة النظام ".

كتب شكيب أرسلان عن أهمية الصحافة " لا نزاع في أن الصحافة العربية قد كانت من أقوى عوامل هذه النهضة، بما أثارته من الحرية الفكرية ونقلته من أخبار الغرب الناهض إلى أهل الشرق النائم ".

ولعل ما خطّه المصلح الجزائري إبراهيم أبي اليقظان، يعد أبلغ تعبير عن موقع الصحافة ورسالتها الإحيائية في المجتمع حينما كتب:

إن الصحافة للشعوب حياة ... والشعب من غير اللسان موات

4/ كما أسهمت عوامل أخرى في بعث النشاط الفكري في المنطقة العربية، ومن ذلك حركة الترجمة للإنتاج الأجنبي، ودور الاساليات التنصيرية في تحريك العجلة الثقافية والعلمية وتطوير مجال التعليم وخصوصا في مصر وبلاد الشام، وأيضا ظاهرة الاستشراق وما قدمته من دراسات أسهمت في بعث الكنوز التراثية من مرقدها، ومن ثمة دفع العرب إلى الاهتمام بآدابهم وتاريخهم، بالرغم مما شاب الكثير منها من المغالطات أو سوء الفهم.